دكتور بهاء الأمير

هارون الرشيد وشارلمان العظيم

"هارون الرشيد، كان من أنبل الخلفاء، وأحشم الملوك، ذا حج وجهاد، وغزو وشجاعة، ورأي، وكان يحب العلماء، ويعظم حرمات الدين، ويبغض الجدال والكلام، ويبكي على نفسه ولهوه وذنوبه، لا سيما إذا وُعظ".

الإمام الذهبي: سير أعلام النبلاء.



٢٠٢٠م

السؤال

3abire alami



هل حقاً تآمر هارون الرشيد مع شارلمان ضد بنى أمية بالأندلس، مثلما تقوم الدول الإسلامية حالياً مع بعضها، وهل يعني هذا أنها عادة سياسية قديمة وليست جديدة على الدول الإسلامية؟

الإجابة

دكتور بهاء الأمير

(١)

شهد تاريخ الإسلام صراعات عديدة بين من دوله، وقتالاً بين هذا الحاكم وأسرته الحاكمة وتلك، ولكن هذه الصراعات كانت محصورة داخل عالم الإسلام، ومحورها النزاع على أحقية السلطة والحكم.

ولم يحدث أن شهد هذا التاريخ توطؤ دولة من دول الإسلام الكبرى أو حاكم أو أسرة حاكمة فيه مع غير المسلمين على بلاد الإسلام، او موالاة الكفار والاستعانة بهم على المسلمين، سوى الأراذل من الحكام في فترات الضعف والتفكك،، مثل استعانة الوزير الفاطمي ضرغام بالصليبيين للانتصار بهم على خصمه الوزير شاور، ومثل تواطؤ ملوك الطوائف في الأندلس مع الإسبان الكاثوليك في مواجهة بعضهم ، ومثل تواطؤ دوبلات بلاليص ستان مع الإمبراطوريات الماسونية على الدولة العثمانية، ثم الانتصار بهذه الإمبراطوريات في حروبهم معاً.

ومنهج دول الإسلام الكبرى وحكامه في كل العصور، تعرفه في رد معاوية بن أبي سفيان على هرقل حين أرسل يعرض عليه معاونته في حربه مع علي بن أبي طالب، رضي الله عنهما، وكان رد معاوية:

"إن لم تعتزل ما بيننا أرسلت لك جيشاً أوله عندك وآخره عندي يقاتلك حتى يملك صاحبي (علي بن أبي طالب) ما تحت قدميك من الأرض!

وكذلك رد المعتمد بن عباد الذين نصحوه ألا يستعين بيوسف بن تاشفين في مواجهة ألفونسو، لكي لا يستولي ابن تاشفين على مملكته، وكان رده:

"لأن أكون راعياً للإبل في بلاط يوسف بن تاشفين أحب إلي من أن أكون راعياً للخنازير في بلاط ألفونسو"،

والدولة العباسية قامت على أنقاض الدولة الأموية وبعد نزاع معها، ولكنها كانت تحكم بالإسلام وتستمد شرعيتها منه وتجاهد أعداءه، وهارون الرشيد هو درة العقد في خلفائها وملوكها، وكان من الحكام الصالحين المجاهدين، وكان يحج سنة ويغزو سنة، ومات مجاهداً وهو يغزو طوس في خراسان، بعيداً عن عاصمة ملكه.

ويقول الإمام الذهبي في ترجمته له:

" كان من أنبل الخلفاء، وأحشم الملوك، ذا حج وجهاد، وغزو وشجاعة، ورأي ... وكان يحب العلماء، ويعظم حرمات الدين، ويبغض الجدال والكلام، ويبكي على نفسه ولهوه وذنوبه، لا سيما إذا وُعظ".

(٢)

تحالف هارون الرشيد مع شارلمان، إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة، لإسقاط الدولة الأموية في الأندلس، فرضية افترضها وقال بها بعض المؤرخين الغربيين في العصر الحديث، أشهرهم المؤرخ الإسباني رامون بيدال Ramon Pedal، والمؤرخ

البريطاني أرنولد توينبي Arnold Toynbee، ثم نقلها عنهم بعض المؤرخين والكتاب العرب، وأبرزهم المؤرخ الدكتور محمد عبد الله عنان في كتابه الموسوعة: دولة الإسلام في الأندلس، والأستاذ أحمد أمين في كتابه: هارون الرشيد.

واستند المؤرخون الغربيون، ومن ينقلون عنهم من الشرقيين، في هذه الفرضية إلى أمرين، أولاً السفارات المتبادلة بين شارلمان وهارون الرشيد، وثانياً تواطؤ سليمان بن يقظان الكلبي والي برشلونه مع شارلمان.

وكان سليمان بن يقظان، هو والحسين بن يحي والي سرقسطة، يدبرون للانفصال بممالك شمال الأندلس عن دولة عبد الرحمن الداخل الأموية، وبعد أن وقعت بين الجانبين بضع معارك، سار سليمان بن يقظان إلى شارلمان والتقاه سنة ١٦٠هـ/٧٧٧م، في عاصمته بادربورن Paderborn في وستفاليا Westphalia، شمال غرب ألمانيا، وعرض عليه معاونته في غزو الأندلس وأن تنضم مملكته، برشلونه، ومملكة الحسين بن يحي، سرقسطة، إلى إمبراطورية شارلمان، ثم قاتل سليمان بن يقظان بجيشه فعلاً مع شارلمان، بينما تراجع الحسين بن يحي وحصَّن سرقسطة، ولم يستطع جيش شارلمان فتحها، فعاد من أمامها.

ويقول المؤرخون الغربيون ومن ينقلون عنهم إن سليمان بن يقظان كان موالياً للعباسيين، وهيج الثورة ضد الدولة الأموية لكي يوطأ الأندلس للدولة العباسية، ويستدلون على ذلك بأن ثورة سليمان بن يقظان وحلفه مع شارلمان واكبه بث عبد الرحمن بن حبيب الفهري الدعوة للعباسيين بين قبائل الأندلس وتهييجهم على الأمويين، وكان عبد الرحمن بن حبيب والي إفريقية من قِبل الأمويين، وبعد سقوط دولتهم في الشرق أعلن ولاءه للخليفة العباسي، فأقره العباسيون على ولاية إفريقية.

(٣)

فأما سليمان بن يقظان الكلبي، فلا يوجد في أي مصدر عربي ولا غربي معاصر للأحداث أنه كان حليفاً للعباسيين، أو أنه كان ثَمة صلة واتفاق بين ثورته وخروجه على الدولة الأموية وبين دعوة والي إفريقية العباسي، عبد الرحمن بن حبيب الفهري، للعباسيين بين قبائل الأندلس.

وهذا الربط من تفسيرات المؤرخين الغربيين في العصر الحديث، والدكتور محمد عبد الله عنان، رغم أنه ينقل عن المؤرخين الغربيين ويتابعهم في فرضيتهم، يقول إن سليمان بن يقظان كان يقود ثورة في شمال الأندلس وخروجاً مسلحاً على الدولة الأموية، من أجل الانفصال به لنفسه وليس للدولة العباسية، يقول دكتور عنان:

"وكان سليمان زعيم أولئك الخوارج يعمل مستقلاً لنفسه، ويرمي قبل كل شيء إلى تحطيم سيادة قرطبة، وإلى الاستقلال بما في يده تحت حماية ملك الفرنج".

(٤)

وأما السفارات بين شارلمان والرشيد، فقد أرسل شارلمان سفارتين إلى الرشيد، ورد عليهما الرشيد بسفارتين أيضاً، يقول الأستاذ أحمد أمين في سفارات شارلمان للرشيد:

"وسفرت بينهما سفارات طويلة الأمد مرتين: الأولى استغرقت ما بين عامي ٧٩٨م و ٨٠١م، وكانت السفارة في المرة الأولى مؤلفةً من سفيرين إفرنجيين، ومعهما مترجم يهودي يعرف العربية ... وفي سنة ٧٧٧م ائتمر زعماء العرب في الشمال الشرقي من الأندلس، وَأَلَّفوا كتلة قوية، وانتقضوا على عبد الرحمن (الداخل)، وتعاقدوا مع شارلمان الذي كان مُهادنًا للرشيد، ومناصرًا له، فرحب الرشيد بهذه الفكرة".

وكلام الأستاذ أحمد أمين متضارب وينقض بعضه بعضاً، رغم أنه يوصف بأنه من المحققين.

فأولاً: الغالب في المصادر الغربية أن سفارات شارلمان لهارون الرشيد بدأت سنة ٧٩٨م (١٨١هـ)، وانتهت سنة ٨٠٦م (١٨٩هـ)، وإن كان دكتور محمد عبد الله عنان ذهب وحده إلى أنها كانت بين سنة ١٧١هـ (٧٨٧م) وسنة ١٧٦هـ (٧٩٢م)، بينما عبور شارلمان لجبال البرنيه/البرانس وغزوه للأندلس، كان في سنة ٧٧٨م (١٦١هـ)، وانتهى بتمزيق جيشه أمام جيش الدولة الأموية بقيادة عبد الرحمن الداخل، في معركة باب الشزري، أو ممر رونسفال Batalla de Roncesvalles، في ١٥ أغسطس سنة ٧٧٨م (١٦١هـ)، وهارون الرشيد ولي الخلافة سنة ٧٨٦م(١٧٠هـ).

فإذا قارنت هذه التواريخ ستعرف الخلط في كلام الأستاذ أحمد أمين ومن ينقل عنهم، وأن فرضية أن السفارات كانت من أجل حلف عسكري بين شارلمان والرشيد ضد الدولة الأموية في الأندلس مستحيلة، فغزو شارلمان للأندلس وتمزيق جيش عبد الرحمن الداخل لجيشه، كان سنة ٧٧٨م (١٦١هـ)، قبل أن يتولى هارون الرشيد الخلافة بتسع سنوات، في سنة ٧٨٦هـ(١٧٠م)، وهذه السفارات بدأت بعد تمزيق جيش شارلمان في الأندلس بعشرين سنة، وبعد أن كف عن الأندلس، إذ لم يعد لغزوها بعد تمزيق جيشه، ثم انشغل بهجوم قبائل الساكسون على إمبراطوريته.

وحتى لو أخذنا بما ذهب إليه دكتور عنان، فسوف تكون هذه السفارات في أول سنة من خلافة هارون الرشيد، وبعد كسر شارلمان في الأندلس بعشر سنوات.

وثانياً: قصة سفارات شارلمان لهارون الرشيد لا وجود لها مطلقاً في المصادر العربية والإسلامية، ومصدرها الوحيد هو الحوليات الملكية الكارولنجية Carolingian Royal Annales التي تؤرخ للإمبراطورية الكارولنجية من سنة ٧٤١م إلى سنة ٨٢٩م، ومؤلفوها مجهولون، وتاريخ شارلمان العظيم Vita Karoli

Magni، الذي كتبه المؤرخ اللاتيني إيجنهارت Eginhard، مؤرخ حياة شارلمان وعصره.

وثالثاً: ليس في هذه المصادر الغربية الأصلية شيء عن صلة هذه السفارات بغزو شارلمان للأندلس، أو تفسير قاطع لها، ولكنْ المؤرخون الغربيون في العصر الحديث ذهبوا في تفسير هذه السفارات مذاهب شتى، فمنهم من قال إن سببها سعي شارلمان لتسهيل توافد الحجاج الكاثوليك من إمبراطوريته إلى الأرض المقدسة في فلسطين، خصوصاً وأن سفارات شارلمان للرشيد واكبها سفارة ثالثة من شارلمان لبطريرك القدس، ومنهم من قال إنها كنت لأسباب تجارية، أو للاستفادة من حضارة الدولة العباسية وتقدمها في العلوم والصناعات.

وقد ذكرنا في كتابنا: اليهود والحركات السرية في الحروب الصليبية، أن المؤرخ اليهودي والأستاذ في جامعة كولومبيا، آرثر زوكرمان Arthur Zockerman، ذهب في كتابه الأكاديمي: إمارة يهودية في فرنسا الإقطاعية A Jewish princedom in feudal France، إلى أن الهدف الحقيقي من سفارة شارلمان وهداياه لهارون الرشيد، كانت رغبته أن يرسل إليه الرشيد من بغداد أحد اليهود من السبي البابلي، على أن يكون من السلالة الملكية وصريح النسب إلى بيت داوود، لكي ينصبه شارلمان حاكماً على إقليم سبتمانيا وعاصمته ناربون، ويسيطر من خلاله على اليهود الذين يغلبون عليها، فعاد الربي إسحق رئيس السفارة من بغداد باليهودي مخير من نسل داوود، وزوجه شارلمان من ابنة شارل مارتل، وصار كونت تولوز وسبتمانيا، أو ثيودريك ملك اليهود.

ورابعاً: من بين محاولات تفسير السفارات بين شارلمان والرشيد، أن افترض بعض المؤرخين الغربيين، أن شارلمان كان يسعى إلى إقامة حلف سياسي وعسكري مع الدولة العباسية ضد خصومه وخصومها من الأمويين في الأندلس، أو العكس، أن هارون الرشيد هو الذي كان يسعى لهذا الحلف.

يقول دكتور محمد عبد الله عنان:

"ومع أن الرواية الإسلامية لا تذكر شيئاً عن هذه العلائق بين ملك الفرنجة والخليفة العباسي، فقد كانت الخلافة العباسية ترى في قيام إمارة قرطبة الأموية في الغرب منافساً لها في سيادة العالم الإسلامي، ولم يكن يسوءها أن تتعثر هذه الإمارة الفتية وأن تنشغل بمقارعة أعدائها في الداخل والخارج، وإذاً فقد كانت الخلافة العباسية تشاطر السياسة الفرنجية نفس الغاية التي ترمي إليها بالنسبة لإمارة قرطبة، ولما كانت الدولة العباسية لا تستطيع أن تعمل لتحقيق هذه الغاية بطريق مباشر، فقد كان في وسعها أن تعمل لتأييدها بطريق الدعوة والتحريض، ولم يكن بعيداً أن يجد الخليفة العباسي، وهو يبسط حكمه على ملايين النصارى، وفي أرضه يقع القبر المقدس، وسيلة للتفاهم مع إمبراطور الفرنج وحامي النصرانية، وأن يجد عاهل الفرنج ما يشجعه على إذكاء تحرشه بإمارة قرطبة في رفق الخليفة برعاياه النصارى، هذا فضلاً عن أن السياسة الفرنجية تعمل بذلك على تحقيق غايتها الأصلية من مناوأة الإسلام في إسبانيا وإضعاف سيادته ونفوذه، وإذاً فمن المحتمل أن يكون لهذه السفارات والمراسلات السياسية، التي تقول الرواية الفرنجية بوقوعها بين الرشيد وشارلمان، صلة بهذه المرحلة من تدخل الفرنج في شؤون إسبانيا المسلمة واعتدائهم المتكرر على أراضيها".

فإذا قرأت ما قاله دكتور عنان بدقة، ستجد أن تفسيره للسفارات بين شارلمان والرشيد تخمين من عند نفسه، أو من عند من يتابعهم من المؤرخين الغربيين، وليس عليه مصادر ولا أدلة ولا قرائن، فالخليفة العباسي: **"لم يكن بعيداً أن يجد ... "**، و: **"من المحتمل أن يكون لهذه السفارات ..."**.

ثم إن دكتور عنان لم ينتبه إلى أن تفسيره يخالف منطق الأحداث وترتيبها، فقد نسب لهارون الرشيد السعي لإقامة حلف مع شارلمان لإسقاط إمارة قرطبة، وجعله سبباً للسفارات بينهما، رغم أن شارلمان هو الذي بدأ بإرسال السفارات.

وفي الوقت نفسه غفل دكتور عنان عن أن ما يقوله يعني اتهاماً صريحاً لهارون الرشيد والدولة العباسية، ليس بالسعي لإسقاط الدولة الأموية في الأندلس، بل لإسقاط الإسلام نفسه، فلو تمكن شارلمان من كسر الدولة الأموية في الأندلس لأخرجها من الإسلام، وألحقها بإمبراطوريته المسيحية، وليس بالدولة العباسية، وقد نص دكتور عنان نفسه هنا وفي مواضع أخرى عديدة من كتابه على أن دوافع شارلمان لغزو الأندلس كانت دينية مسيحية صريحة ومعلنة.

وقبل ذلك كله، فقد وقع دكتور عنان في نفس الخلط الذي وقع فيه الأستاذ أحمد أمين، إذ يقول إن السفارات بين شارلمان والرشيد لها صلة باعتداء شارلمان والفرنجة على الأندلس، في حين أن هذه السفارات حدثت بعد كسر جيش شارلمان في الأندلس ورجوعه عنها بعشرين سنة، حسب تقدير أغلب المؤرخين، وبعد عشرة سنوات، حسب تقدير دكتور عنان نفسه.

(٥)

والمشكلة الحقيقية في زماننا، ليست في المؤرخين، غربيين أو شرقيين، فهؤلاء المؤرخون يجتهدون ويقومون بدراسات طويلة وأبحاث مرهقة، وينقبون عن الوثائق والمصادر، وفي بطون الأسفار والكتب، ثم يدونون ما يصلون إليه وتفسيرهم له بأسلوب موضوعي رصين، ولا جناح عليهم إن أخطأوا في مسألة أو مسائل، لأن الخطأ واستداركه وتصويبه من سمات العلم الإنساني، ولا يدخل في منهج هؤلاء المؤرخين وأهدافهم جذب كتل العوام العمياء إلى كتبهم وما يكتبونه، وهذه العوام لا طاقة لها أصلاً على القراءة، فضلاً عن البحث والتنقيب والموازنة والنقد.

المشكلة الحقيقية هي في مؤرخي الفيس بوك واليوتيوب، الذين لا علم لديهم، ولا يشغلهم البحث فيما يتكلمون عنه، ولا أين الحقيقة، أو التفرقة بين الصواب والخطأ، فهؤلاء المتعالمون الذين يستوطنون مقاهي الإنترنت، لا يعنيهم سوى جذب الجماهير

وزيادة أعداد المشتركين والمتابعين والانتشار بين كتل العوام العمياء، وما يتلو ذلك من شهرة مزيفة وإعلانات وأرباح.

ومن أجل ذلك يلتقطون أي خبر غريب أو حكاية مثيرة أو قصة غير مألوفة، دون أن يشغلوا أنفسهم هل هي صحيحة أم لا، ثم يقطعونها من سياقها وزمانها وما واكبها من ملابسات، ويضعونها تحت عناوين أشد إثارة ويُلقون بها إلى هذه الكتل العمياء، التي هي أيضاً لا تفقه شيئاً ولا تميز يمينها من شمالها وتسعى خلف الغرائب والمثيرات سعي البهائم خلف برسيمها، فيضيع بذلك العلم والتحقيق والبحث والدراسة، وتطغى عليه التفاهات والغرائب والمثيرات والحكايات السطحية، وتتحول إلى ثقافة عامة شائعة ومدار اهتمام عموم الناس، ويحل مؤرخو مقاهي الإنترنت محل العلماء الحقيقيين وفحول المؤرخين والباحثين.

دكتور بهاء الأمير

٢٨ رمضان ١٤٤١هـ/٢١ مايو ٢٠٢٠م